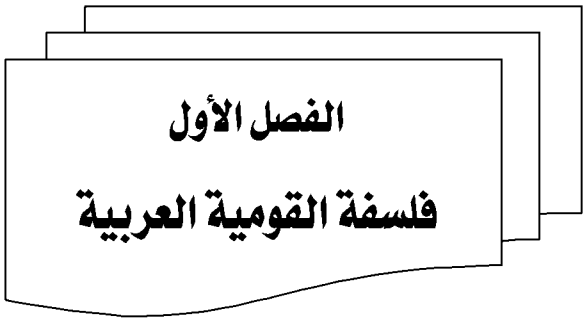
الفصل الأول
فلسفة القومية العربية

لم يكن العرب متأخرين قوميًا عن القوميات التي ذاع صيتها في القرن التاسع عشر. فالشعور القومي والدولة القومية في أوروبا بدأ تبلورهما إبان الثورة الصناعية في ذلك القرن الذي نتج فيه تطورات مثل ظهور الطبقة البرجوازية (الوسطى) والنظام الرأسمالي في تلك المجتمعات وهو ما أدى إلى التحول الإنساني من إقطاعي إلى قومي. أما العرب فقد كانت اللغة العربية والتاريخ الجاهلي الأصيل أهم ركائز الفكر القومي العربي منذ آلاف السنين.

إذن كان مفهوم القومية في أوروبا في عصر النهضة مستوحى فقط من العامل الاقتصادي وحده - الذي هو الأساس الوحيد لتكوين وجود قومي بعكس العرب. كانت القومية في أوروبا تقوم على الحكم أكثر من أي أساس آخر وكان مظهر الدولة مظهرا بوليسيا. كانت القوميات الكبيرة تسعى دائمًا للسيطرة على القوميات الصغيرة، وبقي العامل الاقتصادي هو الذي يوجهها فكان الاستعمار الذي تحكّم في مصير كثير من الشعوب. لكن الثورات والانتفاضات التي قامت بها القوميات الصغيرة في أسيا وإفريقيا في أواخر القرن التاسع عشر كانت العامل في تبلور الفكرة القومية على حقيقتها عند القوميات الصغيرة والقوميات الكبيرة على حد سواء.. القوميات الصغيرة من أجل التحرر.. القوميات الكبيرة من أجل الغنى والاستعلاء. لهذا كانت ظاهرة الصراع بين النزعة القومية الاستعمارية وبين النزعة القومية الاجتماعية والإنسانية التي عمت مناطق كثيرة من العالم، الأولى تنشد القوة واستعمار الآخر، والثانية تهدف إلى التحرر والمساواة.

إن أكثر الناس الذين اختلفوا في قضاياهم كانوا الفلاسفة. اختلفوا في الفلسفة في الغرب والشرق.. فما أن يدّعي أحدهم دعوى حتى يقوم إليه من يعترض عليها، وما أن يقيم أحد منهم على نظرية حتى يأتي من بعده من يتولى هدم هذا البناء من أساسه، وما زالوا على هذا المنوال يستبدون بالممارسة الفلسفية حتى عد بعضهم هذا الاختلاف محمدة، وكذلك هم اختلفوا أيضًا في ماهية القومية عند أي أمة. ومن هنا، إذا جاز أن يقدم الاختلاف الشديد بين الفلاسفة المتعاملين مع النموذج الفلسفي الغربي، فلماذا لا يجوز أن يصل الاختلاف الفلسفي إلى أقصى غاية بل إلى

حد قطع الصلة بالنموذج الغربي وإنشاء نموذج فلسفي عربي يضاهيه! لعل هذا هو وضع المتفلسف العربي الذي يرى أن ثقافته القومية تكتسب صفاتها الايجابية الخاصة بما يوجب أن تتميز به عن فلسفة الغير، وذلك بسبب خصوصية ثقافته حيث أن الإبداع الفلسفي لا يمكن أن يعزى إلا من داخل الثقافة القومية الخاصة للأمة، وقد لمسنا قبل قليل كيف أن القومية في المجتمعات الأوروبية كانت مستوحاة من الاقتصاد، وأن القومية العربية مستوحاة من اللغة العربية ومن التاريخ العربي. إن سبب التخبط الذي تمر به النخب العربية أحيانًا ليس في العلمانية ولا في الأصولية، ولكن في التشوه المعرفي والتقليد لدى العقل العربي الذي عجز عن ممارسة دوره الإبداعي الطبيعي، فلجأ إلى استعارة القوالب الجاهزة من الغرب.

لهذا لا بد لنا نحن العرب أن تكون لنا فلسفتنا القومية الخاصة التي من خلالها نحلق بكل حرية حتى لا يفرض علينا الغير أن نكون مكبلي الفكر. أول شيء علينا عمله هو النظر في هذه الدعاوى التي يقول أصحابها بأن الفلسفة معرفة عقلية تشمل الجميع أفرادًا كانوا أو أقوامًا؛ بمعنى أن الفلسفة معرفة ومقصد، ولهذا لا يمكن لأحد أن ينكر أن هناك دائمًا علاقات حوارية تحتاجها الأقوام جميعًا فالاختلاف يوجب الحوار، والحوار إنما هو تواصل السؤال بل الخاصية الأولى للفلسفة، وعلى هذا، فالحوارية بين الفلسفات القومية المختلفة لا تقل دلالة على التفلسف عن الحوارية داخل الفلسفة القومية الواحدة لقوم من الأقوام، فالاغتراف من حوار الذات كما الانتقاء من الثقافات الإنسانية الأخرى، والنتيجة قطعًا ستكون مختلفة عن الغير لأنها تطعمت وتعمدت بالتطوير من مادتين فأصبحت مختلفة عن الثقافة الأخرى على الأقل. لذا كان للعرب الحق في الاختلاف الفلسفي عن غيرهم، ولهذا فإن الفلسفة تأخذ بأسباب قومية صريحة، فكان وضع مفهوم خطاب جديد للقومية العربية ينفع في حفظ خصوصية الفلسفة العربية على أن الخطاب الجديد تبلور من خلال حوار مع فلسفة ربما غير عربية، ويدفع عنها الفلسفات الأخرى بل ويجعلها خاصة دائمًا.

أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، شكل سؤال النهضة العربية الهاجس الرئيسي الذي انطلقت منه غالبية الكتابات العربية في الفترة التي أطلق عليها عصر النهضة العربية مع انه لم يثبت باليقين وجود مشروع عربي نهضوي، اقتصادي أو اجتماعي أو ثقافي مادام الأمر قد ارتبط بالسياسة والسياسي الذي كان يقود وكانت الأمور تنتهي بين يديه، فكان رأس الدولة هو الملك أو الأمير وكان تداخله واضحًا في ثنايا شؤون الفقيه والمربي والمفكر. وهكذا بقي السياسي الحاكم هو مشروع الأمة ولا مشروع غيره باعتباره مبتدأ النهضة على أساس انه مشروع الأمة التي تطلب التحرر من الاستعمار عدوها الخارجي والتخلف عدوها الداخلي، فكان من الطبيعي لأسباب داخلية وخارجية أن تغيب التفاصيل لحساب الرؤية العامة في النهضة والتقدم، وهو ما أدى في غفلة من الوعي العام إلى ظهور الحاكم المستبد الذي حكم بوجهة نظر واحدة.

هذا، ولا ينكر أحد بأن رواد الفكر القومي العربي أمثال "ساطع الحصري" و "الأرسوزي" و"قسطنطين زريق" و"ميشيل عفلق" وغيرهم من الذين سيأتي ذكرهم، قد دعوا إلى نهضة على غرار نموذج الدولة القومية الأوروبية، ولذلك واجهت آراؤهم نقدًا وهجومًا إلى حد التكفير أحيانًا. لذا يمكننا القول بأن النظرية التقليدية في الفكر القومي بصفة عامة هي نظرية قومية ثقافية تحكمها ثلاثة أنساق، هي:

النسق اللغوي العنصري.
والنسق اللغوي التاريخي.
والنسق اللغوي الروحي.

ساطع الحصري مثلاً، اعتمد في رؤيته القومية على مفهوم وحدة الأصل للأمة العربية الذي يقوم على أساس وحدة اللغة والاشتراك في التاريخ. فلم يكن ساطع الحصري عنصريا لأنه كان يربط الأمة باللغة والتاريخ. أما الأرسوزي فكان أول المفكرين من صك نظرية" الأمة -اللغة" بين العهد الذهبي العربي الجاهلي وبين العهد اللاحق الذي أصبحت فيه الأمة مشتقة وهجينة. ورأى الارسوزي أن البعث

القومي لا يتحقق للأمة العربية إلا بالعودة إلى جاهليتها حيث تكون وحدة اللغة والتاريخ الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية. وقد وافقه الحصري في هذا فرأى أن تذوب الهويات وتنصهر لتعيش في عالم لغوي واحد، وهذا ما حوّل نظريته القومية إلى شبه مفهوم صامت لا يقبل التعدد والتنوع، ويرى أن الأمة تسبق الدولة فهو بهذا لا يعترف بالدولة، ويرى أن الأمة تبقى أمة ولو صارت في دول متعددة أي لو ظلت محرومة من وحدتها وإقامة دولتها القومية. وهذا الطرح لا يغفل أن نموذج الدولة لمجرد أنه دولة هو قوميٌ بطبيعته، حتى وإن كان يتبنى أيديولوجية غير قومية أي انه يقوم موضوعيًا بحكم طبيعته على إنتاج هوية موازية شاملة تشكل أو تفترض نفسها محور الولاء. إن العلاقة بين الدولة والأمة ليست علاقة بين شيئين منفصلين إنها علاقة ما بين شيئين يعزز كل منهما الآخر ويتكرر فيه، وهذا ما جعل الدولة العربية الإقليمية كمشروع مؤقت يتطلع فيها الشعب إلى سقف أعلى لتحقيق أمانيه غير ناس بأنه عربي، وذلك تمهيدا للدولة القومية الكبرى مهما حاول أصحاب المصالح تأجيل تحقيق هذا الهدف.

وأما النسق اللغوي الروحي فهو الوحدة الروحية التي تحدد شخصية الأمة الخاصة وتميز رسالتها إلى العالم، كان "قسطنطين زريق" أول من بلور هذا النسق معتبرًا أن القومية في جوهرها ليست سوى حرارة روحية تعمل على بعث قوي للأمة وتربط بين شخصية الأمة ورسالتها. لقد كان "ميشيل عفلق" أيضًا هو أول من طور مفهومي الشخصية والرسالة، فقد رأى أن البعث هو الكشف عن الجوهر وتوافق القيم الروحية التي ينبع منها الدين.

الأمة العربية في القرن الواحد والعشرين ما زالت من العالم الثالث، فهل حقيقة ثمة فلسفة خاصة بالعالم الثالث؟ وهل هذه الفلسفة تعتمد على التراث فقط أم هي من الفكر المعاصر؟ فمما يؤسف له انه توجد مدرستان للفكر القومي العربي تتشبث كل منهما بفكر خاص. المدرسة التقليدية التي لا تريد تحمل عناء التغيير، وترفض الانفتاح على الغير مع الانغلاق والتقوقع. والمدرسة الأخرى التي يرى أصحابها أن ما في تراثهم لا يكفي لتحقيق هدف التطور وما يؤكد ذاتهم بل يرون في هذا التراث

عبء التقليد ولا يرون في حاضره ما يميزه فيحاولون أن يلغوا مميزاته حتى ينطبق على واقع مختلف في الزمان والمكان.

لكن ربما الأصوب هو أن تناقض المدرستين لا يجب أن يُعتمد، لا يوجد ما يسمى بالعالم الثالث الذي ما زال يحاول التحرر من سطوة الغير. بل أن لباس الواقع الذي يغطي العالم الثالث إنما هو لباس رث مؤقت غير ذي قيمة من الممكن نزعه من تاريخ العالم الثالث ولا يبقي إلا هذا العالم. إن تاريخ الشرق كله خلال القرون الماضية هو تاريخ صراعه مع الاستعمار بما في ذلك صراعه ضد التخلف الذي ظل يطيل زمن الاستعمار. فإذا نزعنا عن العالم الثالث النفوذ الاستعماري والتخلف هل يبقى العالم الثالث عالمًا ثالثًا؟!

بعد الحرب العالمية الثانية، أنكر العالم الرأسمالي والاشتراكي وجود العالم الثالث، وكل واحد أتبع هذا العالم بعالمه. العالم الرأسمالي باعتباره مسيطرًا ومستعمرًا أوجد أنظمة برجوازية تابعة له فسمى نفسه مع من يخضعون له بـ"العالم الحر". والعالم الاشتراكي اعتبر عدم الاستقلال الكامل للأنظمة المتخلفة هو فترة صراع طبقات المجتمع مع المستعمرين وهذه الشعوب المغلوبة على أمرها في هذا الوقت إنما هي تسعى لتحقيق الاشتراكية وسيكون عالمًا اشتراكيًا. لكن أيًا من وجهتي النظر لم تكن صحيحة فالرأسمالية والاشتراكية ألغتا خصوصية العالم الثالث كأنه لا يوجد تاريخ ولغات وارتباطات روحية لهذا العالم. حتى وإن بدا العالم الاشتراكي هو الأقرب إلى العالم الثالث، لكن العالم الثالث الذي رزح تحت الاستعمار، وحده الذي قاوم الاستعمار وارتبط تخلفه ببقاء الاستعمار وناضل ضده، وهذا ما جعل له فكرًا وعقيدة وفلسفه خاصة.

إذا أراد الإنسان العربي أن يكون صادقا مع نفسه وواقعيًا فلا بد أن يكون الانطلاق من التاريخ العربي وما يواجهه من قضايا ومشكلات ومعاناة لا يشاركه فيها من العالم أحد. يجب استخلاص الرؤية التاريخية الفلسفية من المشكلات والمعاناة لكي تصير دليلاً عمليًا ومنهجًا سياسيًا في الحاضر والمستقبل. ليس معنى هذا إلا يلتفت أبدًا العرب الذين هم من العالم الثالث إلى كل ما أتت به الفلسفات السياسية في

الغرب أو في الشرق وأن يبدأ العمل من ألف باء الفكر. فالفلسفة التي تهدف إلى الدخول في أعماق المشاكل التي نعيشها لا يمكن أن تتجاهل الفكر الإنساني الذي تركته لنا البشرية منذ بدء الحضارة الإنسانية حتى اللحظة. فليس من الصواب بأي حال من الأحوال أن يُدار الظهر للتراث الإنساني بمبرر أنه فكر مستورد ليس له علاقة بقضايانا وتخلفنا وأن ما عندنا يكفي. فالمشاكل مثلاً التي يعاني منها العالم الثالث ليست في الأساس دائمًا مشاكل داخلية، إنما هي نتائج وردود فعل لوضع سياسي واقتصادي واجتماعي قائم في عالم غير العالم الثالث هو العالم الغربي الرأسمالي. إذا هي مشاكل خاصة بالعالم الثالث لكنها ليست نابعة من تطوره الذاتي المحض بقدر ما هي نتائج لعلاقات استعمارية طويلة مع دول الغرب المتقدمة مثلاً. وما الحركات القومية والاشتراكية بدءًا بالثورة العربية الكبرى التي اجتاحت موجتها بعض بلدان الوطن العربي في النصف الأول من القرن العشرين التي قادها الشريف "حسين بن علي"، وكذلك الثورات (الانقلابات) التي بدلت فيما بعد الأنظمة الحاكمة في مصر والعراق وسورية واليمن وليبيا، إنما هي ردود فعل لهذا الاستعمار الذي تعرض له العرب وهي ردود أفعال لوضع التخلف الذي ارتبط بالاستعمار الذي حرص على إبقائه في المنطقة.

هناك مثلاً.. توجد دول عربية إقليمية صديقة دائمة للغرب الديمقراطي، لكن هذا الغرب لم يعمل على دمقرطة هذه الكيانات للرقي بشعوبها. لم يكن الاستعمار مجرد عملية غزو بلا هدف كغزو المغول مثلاً الذين ما كادوا أن يختفوا حتى اختفى أثرهم بعكس الاستعمار الغربي الذي كان إفرازًا لحضارة معينة ونظامًا اجتماعيًا اقتصاديًا له لون خاص مغمس بفكر وبفلسفة معينة، يتوجب الآن دراستها وتمحيصها من أجل فهم أسباب معاناتنا وتخلفنا لكي نجد الحل. إن الأمر الذي يدفعنا للاغتراف من منابع الفكر العالمي الحديث هو أن عالم اليوم في ظل العولمة أصبح مدينة واحدة بسبب الصناعة المتقدمة وتكنولوجيا الاتصالات والمواصلات وأصبحت القضايا واحدة في هذا البلد أو ذاك، وقد رأينا خلال الأزمة الاقتصادية التي عمت العالم سنة ٢٠٠٦ كيف تداعت اقتصاديات دول العالم كلها في ليلة وضحاها بعد أن بدأت الأزمة في الولايات المتحدة.

لهذا ليس خطأ أن يأخذ العالم الثالث من منابع الفكر العالمي للوصول إلى فكر سياسي سليم لتحقيق الهدف القومي والوصول إلى الوحدة القومية. وليس من الصواب الاستماع إلى الذين يعلكون أطروحاتهم المهترئة لاسيما حين ترتفع موجات الشدّ الرجعي وتنحسر موجات المد التقدمي زاعمين بذلك أنهم يدافعون عن تراثنا القومي والديني وما هم إلا مقيدين بنظرة ضيقة غير مدركين لحقيقة التراث الحي الذي يأخذ من الفكر العالمي ويعطيه.. لو نظرنا إلى النظم الاجتماعية في دول الغرب الرأسمالية سنجد أن كثيرًا منها مأخوذ مما جاء به الإسلام. فإذا كان الرجعيون العرب يعارضون استيراد الفكر التقدمي الثوري، فلماذا يستوردون السيارة والطائرة والمذياع ومكيفات الهواء وكل منتوجات الفكر المتقدم في العالم، وما علموا أنهم بذلك إنما يخدمون النفوذ الأجنبي لكي يحكم عن طريق الاقتصاد بسبب الاعتماد عليه. يبدو أن هؤلاء لم يعلموا بأن الحضارة الإسلامية قد انفتحت في الماضي على حضارات العالم المعروفة، أخذت من اليونان والرومان والهند والصين، وعمل هذا الانفتاح على دفعها لكي تكون في زمانها أعظم حضارات العالم قاطبة.

إن الفكر الإسلامي هو فكر كل التيارات الإسلامية، سنة وشيعة وخوارج وقرامطة ومعتزلة وقدرية وصوفية بل هو فكر الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن عربي وابن خلدون؛ ولو أردنا أن نطبق على هؤلاء مقاييس المنغلقين على أنفسهم من أهل هذا الزمان الذين يكفرون كل من يخالف الواحد منهم لكان الكفر هو التهمة الوحيدة عندهم. لو فتحت الشعوب عيونها والتفتت حولها ستجد أن أنظمة الحكم في العالم العربي وخدمهم من المنتفعين مستشارين وواعظين، كلهم يحكمون ويملكون الأرض وما عليها، فهل هذا هو التراث الحقيقي الذي يتغنون به؟ لقد وصفهم الله في كتابه العزيز: "وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا وقال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون". سورة الزخرف - آية ٢٣

لو تصفحنا التاريخ العربي القديم سنجد أن عصور الازدهار العربية كانت مرتبطة بظاهرة التلاقح بين الجنس العربي وغيره من الأجناس الأخرى، فلقد شهد العصر

العباسي والأندلسي قمة الازدهار والتوسع والرفاه، وكذلك انتعش في العصرين السابقين الفكرُ الفلسفيُ والإبداعُ الأدبي كذلك، ولا يعود السبب الرئيسي لهذا النبوغ إلى العبقرية العربية وحدها، وإنما يعود كذلك إلى التلاقح الفكري بين العربي وغير العربي. هذا، ولم تُشكل الأعراقُ والأجناس والديانات عند العرب عائقا في طريق التطور والإبداع، بل كانت حافزا من حوافزه، لذا فإن فسيفساء المجتمع العربي من غير العرب، التي اعتاد كثيرٌ من المؤرخين أن يسموها مخطئين (الأقليات) كتسمية تدل على التحقير والتقليل من شأنها، أثرَتْ الحضارة العربية في كل مجالات الإبداع. فمن يرجع إلى تفاصيل الدولة العربية في الأندلس تدهشه هذه الحقيقة، التي لم يقم كثيرٌ من المؤرخين العرب بتحليلها تحليلاً وافيا، وذلك لأن بعضهم ظل يعتقد بأن مناقشة هذه الظاهرة وإبرازها يُضعف سمات المفاخر العربية الخالصة، ويُقلل من إبداع العرب أنفسهم، وهذه وجهة نظر غير صائبة، لأن الأجناس غير العربية التي سكنتْ بلاد العرب، أو الطوائف غير العربية التي حكمها المسلمون، تمكنتْ من صنع (المزيج الحضاري العربي) أو الخلطة الحضارية العربية، التي ساهمت في إثراء المخزون الحضاري العربي في كل المجالات، في الأدب والفلسفة والفن والطب والعلوم، فلقد ترجمت الفلسفة الإغريقية واليونانية، وترجمت الكتب الدينية والقصص والأساطير حتى علوم الفقه واللغة والنحو العربي، وليس أدل على ذلك أصول مؤسس علم النحو العربي، وهو الفارسي "سيبويه" الذي ألف دستور النحو العربي [الكتاب] وأصبح زعيم مدرسة البصرة النحوية في القرن السابع الميلادي ، ولم يَحُل نسبه دون وصوله إلى أرقى الرُتب والدرجات! وغيره كثيرون.

لا ننسى أيضًا أن هذه الفسيفساء غير العربية قد أمدت الجيش العربي بخيرة القادة وأشجعهم، من أمثال صلاح الدين الأيوبي، وهو الكردي التكريتي أيضًا، الذي لم تعُقْهُ لغتُهُ ولا هويتُه ولا عِرقُ ولادته، عن قيامه بدوره كقائدٍ عربي شجاع مخلص! لهذا نعتقد بأن مراكز الدراسات والأبحاث في الجامعات العربية بحاجة إلى تأسيس بنية أساسية لإبراز دور الامتزاج العرقي في تشكيل الحضارة الإنسانية

وتنويعها وتجميلها وإثرائها بمخزونات من العلوم والفنون، وذلك لاستدعاء وحدة المشاعر لإثراء الامتزاج الحضاري خلال المسيرة إلى المستقبل.

إن واجب العرب الحقيقي هو الكشف عن غنى هذا التراث وتقييمه والتسلح والاعتزاز به كما يفعل الهنود بتراثهم والصينيون بتراثهم، ذلك حتى لا نظل موضع استهزاء من المستعمرين. فالتراث ليس تقليدا كما أن الاتصال بالفكر الجديد ليس تنكرا للذات؛ التراث ليس مكانا للركون إليه والاكتفاء به والانكفاء عليه، وإنما هو منطلق إلى آفاق الفكر العالمي. التراث موضوع تاريخي والتجدد عملية تاريخية وكل مكمل للآخر وإغناء له.

دعنا نستمع إلى الزعيم الشيوعي الصيني "ماو تسي تونغ"، الذي كان من ألد أعداء النظام الرأسمالي. سنرى كيف هو يفخر ويعتز بتراث أمته في كل العصور بدء من حياة الصينيين البدائية إلى الرق والإقطاع وغيره حتى أضحت ثقافته الحالية نتاجا لحوار ثقافي مع الثقافات الأخرى. يقول ماو تسي تنج (منقول من فلسفة الحركة القومية العربية "الأصالة والتحجّر" - الدكتور منيف الرزاز):

"منذ أقدم الأزمنة عاش شعبنا الصيني وعمل وتكاثر على هذه البقعة الواسعة من الأرض ولقد تطور شعبنا الصيني كغيره من شعوب العالم العظيمة فمر أولاً خلال عشرات الآلاف من السنين في مجتمع بدائي متساو لا طبقي ولا شيوعي ولقد مضت خمسة آلاف سنة على انهيار المجتمع الشيوعي البدائي والانتقال إلى المجتمع الطبقي فمجتمع الرقيق أولاً ثم مجتمع الإقطاع ؛ في تاريخ الحضارة الصينية لا سيما حضارة " الهان" كانت الزراعة والحرف في أعلى مستوياتها وظهر عدد كبير من كبار المفكرين والعلماء والمخترعين ورجال الدولة والقادة العظام وتركوا ذخيرة ضخمة من الأعمال والكتابات الكلاسيكية ؛ لقد اخترع الصينيون البوصلة قبل ثلاثة آلاف عام واخترعوا فن صناعة الورق قبل ١٧٠٠ عام وطباعة الصفائح قبل ١٢٠٠ عام وطباعة الأحرف قبل ٨٠٠ عام وأستعمل البارود في الصين قبل أن يستعمل في أوروبا . فالصين إذا التي يمتد تاريخها المكتوب إلى خمسة آلاف سنة هي من أقدم البلاد المتمدنة في العالم ؛ إن الشعب

الصيني ليس معروفًا في العالم كله بجلده ومثابرته فحسب وإنما هو شعب محب للحرية غني بالتقاليد الثورية ؛ فتاريخ " الهان" مثلاً يبين أن الشعب الصيني لا يمكن أن يخضع لقوى الظلام وأنه في كل الأحوال كان قادرا على أن ينتصر على مثل هذه القوى أو أن يبدلها بالوسائل الثورية ؛ في تاريخ الصين الممتد إلى آلاف السنين ظهر العديد من الأبطال القوميين والقادة الثوريين كما خلقت الصين عددا كبيرًا من مخططي الحرب ورجال الدولة والأدباء والمفكرين فالشعب الصيني إذا هو شعب ذو تراث ثوري رائع وميراث تاريخي عظيم."

ثمّ أنظر كيف يستفيد "ماو تسي تونغ" من تراثه الصيني من أجل دفع حاضره إلى مستقبله:

"كان الناس يقولون في الماضي إن الذي يقرأ مذكرة " تشوكو" عن غزوته الحربية ويتمالك دموعه فهو ليس موظفا مخلصا. والذي يقرأ عريضة "لي مي" إلى الإمبراطور ويتمالك دموعه فهو بالتأكيد ليس مواليا ؛ واليوم يجب أن نقول نحن إن الذي يرى ويسمع كيف اتحدت جيوش الصين متناسية عداواتها القديمة ومساندة بعضها بعضا ثم لا يتأثر بذلك فهو بالتأكيد ليس وطنيًا ...".

أرأينا كيف أن المناضلين الثوريين الحقيقيين من أمثال " ماو تسي تونغ" يستندون إلى تراثهم؟ ذلك أنه منهم وأنهم منه. وإن تراثهم دافع لا مانع لهم إلى التجديد والانطلاق والثورة مع الاحتفاظ بالأصالة ومع الاحتفاظ بالذات وبالهوية.

إذن لا يوجد قانون يمنع أن ينفتح فكر العالم الثالث على فكر وتراث الآخرين، لكن هي الظروف التي تفرض ماذا يجب أن يكون. الناس في الصيف يلبسون ملابس خفيفة فإذا وجد منخفض جوي فجأة وهبت رياح شديدة وانخفضت درجة الحرارة وسقط المطر فإن الإنسان يلجأ فورًا إلى الملابس الثقيلة، ونفس الشيء لو حدث العكس فجأة في فصل الشتاء. إذن هي الظروف وحاجة التطور حينما يتوجب الانفتاح على الفكر العالمي أو الاكتفاء بالتراث الخاص. لم تكن الحضارة الغربية بفكرها الحالي الذي أثمر المدنية والتقدم الذي وصلت إليه إلا لأنها نقلت عن الآخرين واستفادت من الحضارات التي سبقت.

إن الظروف التاريخية هي التي تفرض ما تأخذ الأمم وما تدع وما تبدع، والأمة العربية لا تختلف إذا أرادت الحياة، لأن فكرها وفلسفتها لا يكونان إلا انعكاسًا للظروف التاريخية في هذا العالم المتغير.

إن أخطاء كثيرة وتضليلاً ما بعده تضليل يُرتكب في حق الوحدة العربية، ويغفله أصحاب الأقلام ولا يشيرون إليه مجاملة للأنظمة الحاكمة أو خوفا منها مما يُبقي الناس واهمين ومضللين وقابعين في صومعة من يحكمون، ويظل المواطن العربي هو الخاسر بل إن أسوأ الأخطاء تقع في حق فكرة القومية العربية خصوصًا حينما ينسبها البعض فيقول بأنها فكر مستورد لم يأت إلا بعد أن اجتاحت موجات التغيير تركيا وما قدم من فكر ليبرالي من الغرب المتقدم، فهل كان واجبا على الأمة العربية أن تعيش في سور مغلق بإحكام وتدير ظهرها إلى الفكر الإنساني. ما المشكلة لو تأثر العرب وأخذوا وأكملوا على ما عند الغير، الم تقم الحضارة الإسلامية التي أنشأها العرب على ما اخذ من الحضارات القديمة من علوم الفلسفة والاجتماع. إن من يدين الانفتاح على الفكر الإنساني اليوم كأنه يدين الإطلاع على الحضارات القديمة حينما كان الإسلام في أوج عظمته.

إن فكرة القومية العربية ليست فكرة حديثة برزت مع أيام الناصرية (نسبة إلى جمال عبد الناصر) في مصر ولا حتى في أوائل القرن العشرين ضد السيطرة العثمانية في سورية، وضد سياسة التتريك، وليست من تلمس العرب طريقهم من الفكر الغربي فقط منذ عهد قريب، إنما هي تنغرس في وجدان الأمة منذ ما قبل الإسلام بل وأصبح التاريخ الإسلامي جزًا من الأصل الذي هو التاريخ العربي الذي كانت اللغة العربية وتاريخ العرب قديما الوعاءين الحافظين له.

هذا، وإننا لا نجافي الحقيقة حينما نقول، إن الانقلابات العسكرية في القرن العشرين التي قام بها ضباط من الشباب الثائرين في أكثر من بلد عربي من أمثال جمال عبد الناصر في مصر، وآخرين في سورية والعراق وغيرهما من الأقطار العربية، أولئك الذين آذى نفوسهم الفساد الذي كان مستشريا في حكومات العهود الماضية في أوطانهم، والذين نجحوا وتسلموا السلطة لإصلاح الفساد، نجد أنهم عجزوا عن إصلاح هذا الفساد، وذلك لأنهم ظنوا أن سبب الفساد قد كان الحكام

التقليديين وبزوالهم ينتهي الفساد ويزول. لقد فات هؤلاء أن يعلموا أن جذور الفساد أعمق من ذلك بكثير، وأن إزالة الفساد تقتضى عملاً علميًا شاملاً يحتاج إلى عمق في الفكر، وقوة في الإدراك، وسعة في الثقافة، وكانوا فقط يملكون حسن النية.. وحسن النية وحده لا يكفي لإسعاد الشعوب، وقد رأينا أخيرًا كيف أن أنظمة الانقلابات التي حكمت منذ منتصف القرن الماضي أصبحت منحرفة أو أريد لها أن تنحرف، والآن تقوم الثورات المستوردة للإطاحة بها!

إن حالة الإحباط التي يعيشها القوميون العرب في القرن الحادي والعشرين، هي نتيجة إخفاقهم التام في تشكيل إتحاد عربي ولو جزئي، وهي نتيجة التركيز على قيمة الجنس العربي وتجاهل القيمة الروحية التي أبرزت الأمة العربية وصقلت تاريخها التي أوجدها الدين الإسلامي أحد أهم مرتكزات هذه الأمة، الدين الذي يشكل العنصر الأساسي لماضي الأمة وحاضرها ومستقبلها الفاعل الرئيسي في تشكيل خصوصيتها، فلقد ارتبطت الأمة العربية بالإسلام فكرًا ووجودا.

من ناحية أخرى، إن القوميين العرب قد اقتبسوا الفكرة القومية في العصر الحديث من القومية الألمانية التي كانت ردة فعل على تشرذم الولايات الألمانية فنزع الألمان إلى السعي إلى التحقق الذاتي للأمة في خصوصية وحيث أن لكل أمة عباراتها القومية الخاصة بها. إن العبارات الرنانة والشعارات البراقة لا تكفي لتحقيق وحدة عربية شاملة إذا لم يصحب الإعلام خطط عملية على صورة مشروع نهضوي له محتوى اجتماعي مدروس ومخطط له جيدًا يجعل الوحدة تعني البشر المقصودين بها، كأن يكون العمل على تحقيق الاكتفاء الغذائي مثلاً، وكما الخطط التنموية القابلة للتنفيذ في ظل إرهاصات ومعطيات عصر التكنولوجية الرقمية التي تجعل المعوقات أصعب بسبب تفوق الغرب الاستعماري الذي لا ينفك مهيمنا على المنطقة العربية. لكن الشعوب لها وسائلها وسحرها الذي لا يكتشفه الآخرون إلا بعد فوات الأوان، فهل كان الغرب يعني توفير تكنولوجية المعلومات حتى تكون إحدى الأدوات الهامة في أيدي شباب الثورات العربية في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين لكي يطيح شباب الفيسبوك بالديكتاتور حسني مبارك؟ وهكذا تكتشف الشعوب نفسها في النهاية مهما خيم الظلام.

إن وحدة السوق الأوروبية أو الاتحاد الأوروبي مثال حي ودرس يمكن أن يستفيد منه العرب، الذين يجمعهم من عوامل الوحدة أكثر بمرات مما يجمع الأمم الأوروبية، فبالإضافة للغة الواحدة والتاريخ المشترك والإسلام الذي صنع دولة الوحدة العربية الأولى والتي تحاول الأنظمة القطرية الدكتاتورية العربية التبرؤ منها كلها يومًا بعد يوم، هناك روابط وجدانية واجتماعية ونفسية وبيئية ومناخية توحد العرب على مختلف أصولهم من المحيط إلى الخليج أكثر من كل الشروط التي تتوافر في أي شعب آخر لصناعة أمة. كل الناس في الوطن العربي يتحدثون عن هموم ومصالح ومشاكل واحدة ومتطابقة بشكل لا نظير له. ولو غيرت اسم أي بلد عربي ستجد أن ما ينطبق عليه ينسحب بدقة متناهية وغير عادية على بقية البلاد العربية دون استثناء، وكأن في الزمن الحالي هناك استراتيجية موحدة يتبناها أعداء الوحدة في الداخل والخارج في تعميم التخلف وفساد الحكم والاستبداد، وإبقاء الناس الذين يقطنون ما بين المحيط الأطلسي والخليج العربي خارج منظومة الحضارة الحديثة. نرى الأمم الأوروبية الآن تتجاهل القومية في كل بلد وتتوحد من أجل المصلحة والاقتصاد رغم أن كل أمة ما زالت ترقد على بيض قوميتها بمعنى عدم تنازلها في العمق عن تاريخها ولغتها. وهذا لا يعفي من القول إن جاهزية العرب اليوم للأسف ليست مثل أوروبا حينما سعت إلى مشروع الوحدة الأوروبية، فالعرب ما زال ينقصهم التأهيل.. الحريات منقوصة.. الأفواه مكممة.. الإبداع مقتول.. الطموحات مدمرة، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم يفرضها الخوف، والإقليمية عدو لدود للوحدة بين أبناء الأمة. هذا فضلاً عن أن القوميين أنفسهم مختلفون، فهذا قومي اشتراكي، وهذا قومي ليبرالي، وهذا قومي علماني كل ذلك في ظل صراعات سياسية حزبية، فالقوميون حتى الآن لا يملكون تنظيمًا فكريًا راسخًا وإنما مقدرة فائقة في تهييج الشعوب دون رؤية فكرية واضحة، وهذا أدى إلى خلق أحزاب وحركات لا تمت بعلاقة للقومية العربية، مثل، حزب البعث، والحزب التقدمي الاشتراكي، وحركات وطنية فلسطينية وغيرها مع أنه لا يوجد ما يُختلف عليه في العمق بين الأقطار العربية مثلما يوجد عند الأوروبيين.

إن أهم الأسباب التي تبني أمة هي وحدة المشاكل والصعاب التي تواجهها هذه الأمة، ووحدة العامل العرقي والروحي والتاريخي على تكوينها، ذلك ما يجعل ماضيها وحاضرها ومستقبلها في انسجام وتكامل. ولكن في الوقت نفسه، إن من أصعب الأمور هو تحديد أركان أي قومية وصفاتها، فاللغة مثلاً وحدها لا تصلح لأن تكون أحد أركان القومية، الأمريكان والإنجليز والاستراليون ومعظم الكنديين والنيوزلنديون والايرلنديون لهم لغة واحدة، ولكن لا تجمعهم قومية واحدة. وسويسرا والهند والصين تتكون من عرقيات مختلفة لكن تجمعها قومية واحدة.

كما أن الدين وحده ليس ركنًا من أركان القومية أو أن الدين وحده لا يصلح أن يكون ركنًا من أركان القومية. الهند بها أديان كثيرة ومع ذلك تجمعها قومية واحدة. وبلغاريا واليونان يجمعهما مذهب ديني واحد ومع ذلك فهما لا تشكلان قومية واحدة. كما أن الجغرافيا الواحدة ليست ركنًا من أركان القومية، فرغم أن أسبانيا والبرتغال تقعان في شبه جزيرة ايبيريا إلا أنهما قوميتان مختلفتان، وكذلك هي الولايات المتحدة أراضيها واسعة وبيئاتها مختلفة إلا أنها قومية واحدة. كما أن التاريخ وحده ليس ركنًا من أركان القومية.. الأتراك والعرب عاشوا ردحًا طويلاً من الزمن يجاوز الخمسة قرون، لكنهم لم يكونوا قومية واحدة في حين أن الولايات المتحدة لا يزيد عمرها عن ثلاثة قرون وتكون قومية واحدة. هذا، كما أن المصالح أحيانًا لا تشكل القوميات بل يمكن أن تخلق التناقضات، وهذا ما حدث في حربين عالميتين طاحنتين في القرن العشرين بين الدول العظمى من أجل المستعمرات.

إذن القومية لو أردنا تحديدها بدقة.. تحدد بشعور مجموعة من الناس بأنهم أبناء قومية واحدة، وقد تجمع هؤلاء العوامل السابقة بعضها أو كلها لكن العامل الأساسي الذي يفوق كل هذه العوامل هو شعور أبناء الأمة بأنهم أبناء أمة واحدة. فإذا ضعف هذا الشعور فلن ينفع القومية اجتماع كل أركانها وهذا ما يلمس في القرن الحادي والعشرين للأسف عند العرب.

الأمة العربية يتوفر فيها معظم العوامل التي أتينا على ذكرها، إلا أن الشعور القومي غائب للأسف بسبب الجهل. من ناحية أخرى، لقد استطاع اليهود بسبب وعيهم وليس اتفاقهم أن يصنعوا قومية، رغم أن أيًا من العوامل التي ذكرنا لم يجتمع اليهود كلهم يومًا عليها.. هم تيارات دينية وحاخامات.. أنماط من النظريات الاقتصادية (اشتراكية ورأسمالية ودينية).. لا يقيمون في بلد واحد قبل إنشاء إسرائيل ومع ذلك أوجدوا الصهيونية حينما أتاح لهم الغرب الفرصة وحينما التقت مصالحه معهم بعد ما حاق بهم من نبذ وإذلال ومذابح في روسيا وبولندا ثم في أوروبا الغربية.

مما سبق نستنتج أن ما من أمة توفر لها من أركان قومية مثلما توفر للأمة العربية، لأنها تجمع كل الأسس التي تكون الأمة الواحدة. لكن هذا الواقع لا زال غائبًا عن بعض الحكومات العربية عن قصد أو عن جهل وهو ما وجدته الجماهير فرصة حينما أتيح لها أن تلفظ أنظمة مرحلة سايكس – بيكو وما تبعها من محاولات إصلاحية فوقية عن طريق الانقلابات التي ازدهر سوقها في النصف الثاني من خمسينات القرن العشرين، ثم كانت في عام ٢٠١١ ثورة تونس مصر وليبيا واليمن وسورية ليدخل الوطن العربي مرحلة جديدة فيها ما فيها من الآمال لتحقيق الحرية والديمقراطية، وفيها ما فيها من الخوف من المجهول بسبب ضعف المناعة عند الثورة والخوف من سيطرة الغرب عليها واحتوائها وتوجيهها.

(سنأتي في فصل آخر من الكتاب بحديث أوسع وأشمل عن الثورات العربية التي انطلقت عام ٢٠١١م)

▪ الوطن العربي

يقع الوطن العربي بين ملتقى قارات العالم القديم، ويعتبر الحزام الأمن للدول الأوروبية، ويقع بين دائرتي عرض ٥٢° جنوبا و٣٧,٥° شمالا وبين خطي طول ٦٠°شرقا و١٧°غربًا ما عدا دولة جزر القمر التي تقع عند دائرة عرض ١٢. وتغطي مساحة الوطن العربي ما يقدر بـ ١٤,٢٩١,٤٦٩ كيلو مترًا مربعًا أي بنسبة ١٠,٢ % من اليابسة، ويشتمل حتى نشر هذا الكتاب على ٢٢ دولة عربية، ١٠ منها في إفريقيا بنسبة ٧٢,٤٥ % من مساحته و١٢ في آسيا بنسبة ٢٧,٥٥ % من مساحته. ويبلغ امتداده من الشرق إلى الغرب بـ ٦٠٠٠ كلم ومن الشمال إلى الجنوب بـ ٤٠٠٠ كلم. وكما أسلفنا فانه يقع وسط قارات العالم القديم آسيا إفريقيا وأوروبا وتمتد أراضية بين آسيا وإفريقيا ويفصل بينهما البحر الأحمر. ويطل الوطن العربي على البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط والخليج العربي والبحر العربي ويطل على محيطين هما المحيط الأطلسي غربًا والمحيط الهندي شرقا.

وأما التضاريس فتشكل الهضاب أكثر التضاريس انتشارًا، وتتمثل في الصحراء الإفريقية الكبرى وصحراء شبه الجزيرة العربية، بينما السهول لا تمثل سوى ٦ % من المساحة الكلية وهي إما ساحلية أو فيضية، أما السلاسل الجبلية فهي تمتد في نطاق ضيق مثل سلسلتي الأطلس التلي والصحراوي ومثل جبال الهقار بالجزائر.

ومناخ العالم العربي له خصوصية حيث يتأثر بالموقع الفلكي:

١- المناخ الصحراوي: يحتل نسبة ٨٠ % من المساحة الإجمالية، ويشمل جل مساحة شبه الجزيرة العربية ومعظم مناطق العراق ومصر، ويشمل السودان بالإضافة إلى الصحراء الكبرى التي تغطي معظم مساحة المغرب العربي.
٢- المناخ المتوسطي: يسود السواحل المطلة والمناطق القريبة من البحر الأبيض المتوسط كبلاد الشام وشمال كل من مصر والعراق والمغرب.

٣- الإقليم الاستوائي: حيث يوجد الصومال.
٤- الإقليم المداري: شمال الصومال، إريتريا، جيبوتي، اليمن، جنوب السودان، وجزر القمر وجنوب غرب السعودية وبعض مناطق سلطنة عمان.

وتُجمع التعدادات السكانية على أن عدد سكان الوطن العربي حوالي ٣٤٠ مليون نسمة تقريبًا مع التنويه أنّ هناك فئات من السكان الذين لا يتكلمون العربية في دول مثل الصومال، وجيبوتي، وجزر القمر، والسودان، والعراق، وسورية. إذ أنّه توجد فئات أخرى من السكان الذين يتكلمون العربية لكنهم يسكنون دولاً أخرى غير منضمّة لجامعة الدول العربيّة مثل إقليم الأهواز في إيران وفيه ٨ ملايين من العرب. ويبلغ عدد سكان الوطن العربي الكبير حسب تقديرات سنة ٢٠٠٧م ٣٣٨,٦٢١,٤٦٩ نسمة - الموسوعة الحرة.

هذا، ويوجد عرب كذلك في تشاد وتركيا وإريتريا ومالي وإندونيسيا وماليزيا. وما يجب قوله هنا، هو، أن أغالبية هذه الدول تحد الدول العربية جغرافيًا، لذلك كان لا بد من أن يكون بعض سكانها عربًا أو قبائل قد تأثرت باللغة العربية فكانت هي المتداولة بينهم. وبالرجوع إلى موسوعة إنكارتا Encarta 2004 نجد أن عدد المتكلمين بالعربية في الوطن العربي قد وصل إلى ٦٣٧،٠٣٩،٤٢٢ شخص.

هذا، ويدين معظم سكان الوطن العربي بالديانة الإسلامية والباقي أغلبهم من المسيحيين وهم يتركزون في بلدان المشرق العربي (لبنان وسورية ومصر وفلسطين والأردن والعراق). بعد اغتصاب فلسطين وتهجير أهلها واستقدام مهاجرين يهود من شتى أنحاء العالم، أصبحت غالبية السكان في فلسطين من اليهود. كما توجد أعداد قليلة من اليهود في اليمن بالإضافة إلى وجود يهودي سابق في المغرب والعراق وسورية ومصر.

وأما التوزيع الديني والمذهبي في العالم العربي، فالشريعة الإسلامية إحدى مصادر القوانين في البلاد العربية خاصة في بلاد شبه الجزيرة العربية. إلا أنّ الشريعة الإسلامية لا تطبّق بكلّيتها في أي من هذه الدول إلا إذا استثنينا المملكة العربية السعودية وبعض الدول ولكن بتفاوت، أما بقية الدول العربية فهي شبه علمانية.

هذا، ويطل الوطن العربي على المضايق والممرات المائية التالية:

١- مضيق هرمز وتشرف عليه سلطنة عمان وإيران.
٢- مضيق باب المندب وتشرف عليه اليمن وجيبوتي.
٣- قناة السويس التي تمر عبر الأراضي المصرية وتصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر.
٤- مضيق تيران وتشرف عليه مصر والسعودية ويقع على البحر الأحمر.
٥- مضيق جبل طارق الذي تشرف عليه المغرب وأسبانيا وبريطانيا.

▪ المعالم الحضارية

١- مصر: أهرامات الجيزة وآثار الأقصر وأسوان وتل العمارنة والإسكندرية والقاهرة القديمة وممفيس وطيبة وإدفو وسانت كاترين.
٢- الجزائر:مقام الشهيد بالعاصمة، جبال الهقار بتمنراست، تاغيت بشار، الشفة الخلابة بالمدية، ياما قوراية ببجاية، فوهة مادنة ب الأغواط الناتجة عن سقوط ثاني أكبر نيزك، قوس كركلا بسوق أهراس، تيمقاد وجميلة الأثريتين بباتنة وسطيف، القالة، قالمة، غرداية، قسنطينة، سكيكدا، جيجل، تلمسان وكلها مناطق سياحية .
٣- سلطنة عُمان: قلعة نزوى، كهف مجلس الجن، كهف الهوتة، صلالة، مصيرة، الديمانيات، حصن جبرين، العيجة، الأشخرة، ميناء صور، قلعة الجلالي والميراني، مسقط، جامع السلطان قابوس، سوق مطرح.
٤- ليبيا: آثار لبدة، صبراته، شحات، ظلميتة، بحيرة قبر عون، المدينة القديمة بطرابلس، قوس ماركوس اورليوس، السراي الحمراء ليبيا، كنيسة الخضراء بمدينة ترهونة.
٥- المغرب: آثار طنجة، فاس، مكناس، الجديدة والرباط .

٦- سورية: أثار تدمر وافاميا وبصرى ودورا أوربوس ودمشق القديمة وحلب وشهبا وراميتا ومعلولا وعمريت وماري واوغاريت وصيدنايا وارواد وكركميش والرصافة، سورية والبيعة توتل.

٧- الأردن: آثار جرش واربد والبتراء والبحر الميت والعقبة والزرقاء والسلط وعين غزال ومأدبا وعمان وأم والكرك وعجلون.

٨- العراق: آثار بابل ونمرود وعكَركَوف واور وبغداد وسامراء وهيت ونينوى وآشور والمدائن وحصن الاخيضر في الفرات الأوسط والدور ملوية أبو دلف.

٩- فلسطين: آثار أريحا والقدس وعسقلان والخرب في حمامة وبيت لحم وبيسان والجليل والخليل وطبريا والنقب ونابلس وسبسطية والبحر الميت.

١٠- لبنان: صيدا، بعلبك، جبيل، صور وبيروت.

١١- تونس: قصر الجمّ، قرطاج والقيروان والمهدية.

١٢- السودان: أهرامات مروي وجبل البركل.

١٣- اليمن: معبد بلقيس، وسد مأرب، وعدن وصنعاء القديمة.

١٤- السعودية: مدائن صالح ومكة والمدينة المنورة والبلدة القديمة في جدة وآثار أصحاب الأخدود في نجران وقلعة تاروت في محافظة القطيف ومركز الملك عبد العزيز التاريخي وآثار الدرعية الرياض.

١٥- الكويت: فيلكا، سور الكويت.